الباب الأول
في الشعر الجاهلي

الفصل الأول

البحث عن الخلود في الشعر الجاهلي

- ملاحاة العاذلة -

تمهيد

استوقفني في قراءاتي كثير من دواوين الشعراء الجاهليين ظاهرة جديرة بالدراسة والبحث، هي ظاهرة الصراع بين المثل والواقع عند الشاعر الجاهلي، ذلك الشاعر الذي يسعى ليخلد نفسه، أو على الأقل يسعى لكي يترك من الأثر ما يستحق به الخلود، فتنبري له العاذلة[1] محاولة أن ترده إلى الواقع الذي عليه المجتمع ويعيشه الناس كلهم، ولذلك فهي تلومه وتعذله وتعنفه أحياناً في محاولة منها لتعديل رؤيته للحياة، وفلسفته في السلوك للحد من شططه وإسرافه.

اتخذ الشاعر من العاذلة – غالباً – أداة فنية يوضح من خلال حواره معها طبيعة ذلك الصراع الذي كان يعتمل في نفسه بين المثل الذي يؤمن به ويسعى إليه، والواقع الذي يرفضه ويريد الخلاص منه أو الانفكاك من رتابته.

وإذا كان الشاعر يريد بلوغ المثل وتحقيق الخلود بإسرافه وغلوه في كثير من الأمور والقضايا الحياتية التي تواجهه، ليكون متميزاً ومتفرداً فيكتب له الخلود والبقاء على الرغم من فناء جسده واندثاره المادي، فإن العاذلة كانت تحاول أن ترده إلى الواقع المعيش الذي يحياه المجتمع المعتدل الرافض لطرفي المعادلة إفراطاً أو تفريطاً.

ولتوضيح جوانب هذا الصراع وصوره وأشكاله عند الشعر الجاهلي، قمت برصد مجموعة من القضايا التي كان يحتدم فيها ذلك الصراع ويقوى، فيبرز فيها موقف العاذلة جلياً واضحاً، فكانت القضايا الآتية هي أبرز مواقف الشد والجذب في هذه المعادلة التي بدأ الشاعر مشبوحاً بين طرفيها.

1- قضية الكرم:

قد تلوم العاذلة الشاعر في كرمه وسخائه، أو تحاول أن تحول دونه ودون بذله وإنفاقه طالبة إليه الإبقاء على ماله وادخاره لغده، أو تلح عليه في ذلك، إلا أنه لا يستجيب لها ولا يعبأ بطلبها وإلحافها، فقد دأب على ذلك واعتاده، فهذا حاتم الطائي الذي اشتهر بكرمه وجوده حتى ضرب به المثل فقيل "أجود من حاتم"[2]، يفيض ديوانه بكثير من المقطعات والقصائد التي يحاور فيها عاذلته مصرحاً باسمها أو كنيتها تارة[3]، غير عابىء بهذا التصريح تارة أخرى[4] فلا يستجيب لعذلها؛ لأن الكرم فيه طبع وديدن، والجود شيمة وخلق لا يتغير ولا يتبدل[5]، يقول حاتم[6] :

فَقلتُ دعيني إنّما تلكَ عادةٌ لكلّ كريمٍ عادةٌ يستعيدُها

ولأنه توارث الكرم والسخاء عن آبائه وأجداده، فلا فائدة من التقريع ولا جدوى من اللوم ويقول[7] :

وَكَمْ لِيمَ آبائي فما كفَّ جودهم ملامٌ ،ومن أيديهِمُ خُلِقَتْ يدي

فاللوم والعتاب لم يكفا الآباء والأجداد، ومن هؤلاء كان حاتم، فما لم ينفع مع آبائه وأجداده لن ينفع معه، إذ هو من بيت كرم وجود، يستجيب لفطرته وجبلته التي فطر عليها.

وَمَنْ يَبْتدعْ ما ليسَ من خِيمِ نَفْسِهِ يَدَعْهُ ويغلبهُ على النفس خِيمُها[8]

وهكذا كان دوماً في بذله الذي قارب فيه حد الإسراف، حتى كاد – كما تقول عاذلته – يهلك نفسه بهلاك ماله وإنفاقه :

وقائلةٍ أهلكتَ في الجودِ مَالنَا وَنَفْسَكَ حتى ضَرَّ نَفْسَكَ جُودُها[9].

إذا كان هذا شأنه فما عسى أن تصنع العاذلة؟ وهل تفلح في تقريعه وتعنيفه؟ الواقع أنها لا تستطيع ذلك إطلاقاً، ولأقف عند قصيدة له يخاطب فيها اللوامة العذّالة التي أمعنت في لومها، وأسرفت في إلحافها، يقول[10] :

أَمَاويَّ قد طالَ التَّجَنُّبُ والهَجْرُ وقَدْ عَذرَتْنِي في طلابِكُمُ العذرُ
أَمَاويَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ويبقى من المالِ الأحاديثُ والذكرُ
أَمَاويَّ إني لا أقولُ لسائلٍ إذا جاءَ يوماً حَلَّ في مَالِنا نَزْرُ
أَمَاويَّ إمّا مَانِعٌ فَمُبينٌ وإما عَطاءٌ لا ينهنهُهُ الزَّجْرُ

فزوجه ماوية التي يكثر من تكرار اسمها مستخدماً حرف النداء "الهمزة"– وهي لنداء القريب – لا تفصح عن دوافع لومها، وأسباب عذلها بطريقة مباشرة، وإنما يفهم ذلك من خلال ردود الشاعر الذي أجهد نفسه في الدفاع عن مذهبه[11]، وهو لا يسمح للعاذلة بالحضور البين في القصيدة، وكل الذي نلمحه صدى لإلحاحها وتقريعها، وهي سمة بارزة وعامة في معظم قصائد العذل في الشعر الجاهليّ، إذ إن الشاعر يجعل صوت العاذلة خافتاً مكبوتاً في الوقت الذي نسمع فيه صوته عالياً، وهو يهاجمها بقوة ويدافع عن سلوكه العملي بصلابة.

فهل كانت العاذلة هنا زوج الشاعر كما جاء في أخباره، وأنها بالغت في لومها ومحاولة التأثير فيه إلى أن وصل ذلك إلى الهجر والتجنب[12]، وأنها آلمته وآذته؟ قد يكون هذا صحيحاً، خاصة أنه يتلاءم مع طبيعة المرأة لأنها أميل إلى الاستقرار وادخار المال وطلب

السلامة، ولا سيما في بيئة قاسية، ظروف الحياة فيها صعبة قاهرة، في مجتمع لم يعرف استقراراً اقتصادياً يضمن دخلاً ثابتاً للأسرة[13].

ولكنني ألحظ في قصيدة حاتم هذه وغيرها[14]، ارتفاع حدة التوتر الداخلي الذي يعاني منه الشاعر، ذلك التوتر القائم في نفسه التي بين جنبيه حين تدعو إلى الاعتدال، وبين سعيه إلى طلب الخلود والبقاء، والإفراط في الإنفاق والتميز به، فهو يجرد من نفسه شخصية المرأة اللائمة، ويتخذ من الحوار الداخلي الذي يجريه وسيلته التي يرتكز عليها لإيضاح وجهة نظره، وبسط مفهومه، الذي آمن به حقيقة واقعة، لا يمكن أن يخرج عن حدودها[15]، لأنه يريد مجداً خالداً و "أحاديث تبقى" على حد تعبيره وتصويره.

ينقل حاتم هذا الصراع الداخلي القائم في نفسه، إلى صراع خارجي مع زوجه التي اتخذ منها أداة فنية، يوضح من خلالها رؤيته للحياة ويبسط عن طريق محاورته إياها فلسفته في السلوك، تلك الفلسفة التي تقوم على الإسراف في البذل، والسخاء في الإنفاق، اتساقاً مع الفكرة التي تسيطر عليه ويخشاها في الوقت نفسه، وهي الموت والفناء، حيث يسعى هو إلى الخلود والبقاء، فهو ينشد المثل والعاذلة تحاول أن ترده إلى الواقع.

هكذا برزت فكرة الموت عند الشاعر، وحددت له اتجاهاً إيجابياً دفعه إلى البذل والإنفاق والإقبال على الحياة، وانتهازها فرصة يخلد من خلال أعماله فيها ذكره، ويبني مجده، بعد فناء جسده، فالحياة هي الفرصة الوحيدة التي تمكنه من بلوغ المثل الذي يسعى إليه، يقول[16] :

أَمَــاوِيَّ مـا يُغْني الثَّـراءُ عن الفَـتى	**إذا حَشْرَجَتْ نفسٌ وضَـاقَ بها الصَّدْرُ**
إذا أنـا دَلَّاني الـذين أُحــــبـــــهـم	**لِمَلْحُــودَةٍ زَلْجٍ جَــوانِبُــهــا غُــبْــرُ**
وراحُـوا عـجَـالاً ينفـضـون أكُـفَّـهم	**يقــولون: قــد دَمَّى أَنامِلَنَا الحَـفْــرُ**
أَمَــاوِيَّ إنْ يصــبحْ صَـداي بقَـفْـرَةٍ	**مِن الأرضِ لا مـــاءٌ لديَّ ولا خَــمْــرُ**
تَرَى أنَّ مـــا أهلكتُ لم يَكُ ضَــرَّني	**وأنَّ يدي مما بخِلْتُ بِهِ صَــفْــرُ**
فَـقِـدْمـاً عَـصَـيْتُ العـاذلاتِ وسلطت	**على مُـصْطفى مَـالي أَنَامِليَ العَـشْـرُ**

فالإبقاء على المال والاحتفاظ بالثراء، لا يخلدان المرء، ولا يمنعان الموت من مداهمته، إذ أقرب الناس إليه، هم الذين يلحدونه وينفضون أيديهم بعد فراغهم من دفنه. هذه فلسفة حاتم في السلوك العملي، ورؤيته للحياة يبسطها لعاذلته ، فما أبقاه من ماله – بعد أن صار في لحده– لا ينفعه، وما أتلفه وأنفقه لا يضره، فهو يبحث عن خلوده بحسن الذكر وجميل الثناء بعد الموت، إنه يريد أن يظل " أحاديث تبقى".